

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

العلم التطبيقي في قفص الإلهام

نعيش اليوم توجهاً بالعلم شيطانياً ، وثيق الصلة بشر استعمال العلم الطبيعي ، التقنية . وفي المنحى الشيطاني الحديث هذا ، ينبعث في حلّة التفتيش^(١) الجديدة علم من القرون الوسطى مجدداً ، يسبح فوق موجة من الإحساس المفرط الخطير .

على أنه وإن دافع هنا وهناك بحجج منطقية ، فإنه مع ذلك يسير على شفا هاوية . إنّ التهمة المرفوعة لملايين المرات ، والتي وقع عليها حكم المجتمع القضائي الرفيع منذ وقت طويل نصّ على : أن العلم هو الذنب في كل شيء ، في دمامة ومحلّ العالم ، وفي تجريد الإنسان من إنسانيته ، عن الإحساس بالفراغ ، وإنعدام المغزى من وجوده ، وإنه الذنب في تهديد الحياة ، والبيئة ، أجل في تهديد وجود كوكبنا ، في تعريض حاضرننا ، ومستقبلنا ، وأحفادنا للخطر ، في حاجة فرد وتخمّة آخر ، الذنب في مخاوفنا وكوابيسنا ، باختصار : في الأزمة التي تنتفس فيها بشق الأنفس .

فمن الذي يتحمل تبعه الذنب ؟

والمقارنة تبدو سهلة لأول وهلة . وما يبعث على الإرتياح إيجاد كبش فداء نحمله كلّ التبعة . ولكن ألا يستند هذا الحكم إلى تقديرات جوهرية خاطئة ؟

(١) محاكم التفتيش .

إنَّ الأزمة جميعها ، التي نعيشها دون شك ، لا ترجع قطعاً إلى أسباب أخرى كما أشرنا في كتابينا « خاتمة الشقاق » ، « وهذا - بعد الإعلان الشيوعي » ، والذي سوف نعود إليه في الختام . وهذا الحكم للعلم أو عليه ، يقوم على تحيز وحكم خاطيء ، حوله ، وحول منشئه وتطوره ، أُسسِه ومهامه ، أهدافه وحدوده ، وبصفة خاصة حول علاقته بالدين ، وبصفة عامة على أحكام خاطئة ترددت على مدى مئات السنين ، مرّة من جانب مسيحي وتارة من منظور ملحد . إننا نتحدث هنا عن ميلاد العلم ، من خلال ميلادٍ ثانٍ للعقل الأوروبي ، الذي تأسس في الدين قبل عصر النهضة بوقت طويل . وتحدث بدلالة أخص عن العقل « الأوروبي » وعن العلم « الأوروبي » ، حيث أنهما يعبران عن ملامح تكوين الفكر الأوروبي . على أن هذا المصطلح في حاجة إلى شرح ، لأن المبتكرين كانوا أوروبيين غربيين وأوسطيين ولم يكونوا يونانيين ، وإن كانوا هم أيضاً أوروبيين بطبيعة الحال . ولا شك في أن هذا التقييد سوف يثير ردود فعل ؛ أو لم يكن اليونان بالذات ، هم الواضعين الأوائل لعلومنا الطبيعية؟ إننا لندرجو من قارئنا المتشكك أن يقرر الإجابة عن السؤال بعيد الانتهاء من قراءة الكتاب . ففيم يأتي نتحدث عن العلم الأوروبي بنفس المرمى الذي تحدثنا به في كتابنا « أوروبا الآخر » عن « الدين الأوروبي » .

إننا نجد أنفسنا في مواجهة الحقيقة الملفتة للنظر ، بأن العلم لم يشهد التطور في الصين ، اليابان ، الهند ، روسيا ، أو أفريقيا السوداء ، في جرونلاندا شماها ووسطها ، أو جنوب أفريقيا ، بل وكما لاحظ ماكس فيبر ، في أوروبا - أجل ، أنه لم ينشأ لدى المصريين والبابليين ، اليهود ، والروس ، بل في فرنسا ، والمانيا ، إنجلترا وإيطاليا وهولندا ، باستثناء واحد ، إنّه ذلك ، العربيّ ، العربُ الذين حرص البعض على نفي كل مساهمة لهم في العلم ، الذين بفضل خصوصيات بنائهم الفكري ووسائلهم المطوّرة ، قدموا شرارة الإنطلاق الأولى . غير أن هذا ، ما نفهمه من العلم ، وما نجح في مساره العالمي ، نشأ من الفكر الأوروبي وكان لا بدّ وأن ينشأ عنه .

قبل غيالي بوقت طويل .

كلمة المترجم

كنت أبحث عن إجابة لسؤال قديم : هل صحيح أن الإيمان يتعارض مع العلم ؟ بعبارة أدق : هل يقف الإيمان عقبة في طريق البحث ؟

وعلى كثرة ما كتب في هذا الموضوع وما قيل ، ما شعرت يوماً بأن كاتباً واحداً ، وفاه من الدرس قدره الذي يستحق . وكل ما قرأت أو سمعت ، لم يزد على كونه ذكراً حميداً ووفاءً مشكوراً للأجداد . وظل السؤال هو السؤال . أريد أن أسمع شيئاً آخر غير هذه الإعادة والتكرار ، منطقاً جديداً يتفق وروح العصر . . ويتلاءم وخطورة القضية . . !

إن العلم يتربص بالدين . يتصور ويتوهم : كما استطاع أن يصصره يوماً ، وأن يحشره في كنائس وأسقفيات ، فإنه قادر الآن على تعميم القاعدة وتوسيع دائرة الهجوم ، بغض النظر عن ذلك الخصم من يكون : أي عقيدة ؟ ! أي دين ؟ !

وبينما أنا على تلك الحال من الترقب والتوجس والإنظار . إذا بريح هبوب أعقبها برق ورعد ؛ عاصفة هوجاء حطمت نوافذ الفكر في الغرب فتطايرت لها كل الأوراق : إنها هذا الكتاب الذي أضعه مترجماً وغير مترجم فقط بين يديك من خلال هذه المقدمة الطويلة التي أردتها أن تكون الدراسة (النقدية) التحليلية للكتاب . ومثلي أنت - أدرى - تواق متلهف على حجة

تقطع بها دابر الشك ، وتتطلع إلى عمل جاد ، يخرجك مما تُحس به من ضيق وحرَج ، فيكشف مرّة وإلى الأبد حقيقة الأزمة بين العلم والدين .

فيا أيها العزيز ! الآن فقط ، يمكنك القول ، بأنه لم يعد على الأرض من متسع لمثل ذاك السؤال ! فصاحبة الكتاب ، بأسلحتها الفعالة المؤثرة الثلاث ، التاريخ والفلسفة ومقارنة الأديان ، لم تترك في الساحة سيفاً مشهوراً إلا وكسرت نصاله ، ولا نحتاجاً عنيداً إلا وعقلت لسانه ، في كل ما يتصل بشأن العقيدة والمعرفة ، الانسان والطبيعة ، العلم والايمان والكفر .

● إن العربيّ - والحق يقال - لم يكن في حاجة فقط لمن يجمع له تراثه ، يصنّفه ، يبوّنه ، لمن يضيف مصنفاً جديداً إلى القائمة الطويلة المتشابهة التي ضاقت بها رفوف المكتبة العربية . كان في حاجة أمّس ، لمن يخرج من بين أكداس الكتب وأطنان الكلام بقوانين صحيحة وعلاقات ثابتة ، لإجابات عن متطلبات الساعة الملحة والأسئلة الحيرى التي تتقلب بها عجباً شفاه الناس .

● والتاريخ - هو الآخر لم يعد فناً خرافياً ، أو إعلامياً في حاجة إلى دعيٍّ أو روائيٍّ يجيد من التشويق وإثارة العواطف ، وتحريك الحميات والمشاعر ، قدر حاجته إلى ديالكتيكي بارع ، يعرف كيف يصل بين ما انقطع ، وبذلك ما إقتنع ، ويحسن الاستفادة مما يقع تحت يديه من مصادر ، ويتنقل بخفة بين محطات التاريخ لملاحقة الحدث ، دون أن يخطيء القراءة فيركب القطار المسافر في الإتجاه المعاكس .

● وإذا كان لا بدّ لمن ينبش عن الماضي من مهارات وكفاءات يتحلّى بها ، فإن الإقبال على دراسة التاريخ الحضاري ، يتطلب ما هو أعلى وأغلى من الكفاءات والمهارات : كيف لا ، والمرء هنا إنما يتعامل مع خلجات القلوب ونبضات الوجدان ، وهو الشيء الذي لم تمتلكه لبالغ الأسف ، إلا القلة القليلة من الباحثين ، - والغربيين منهم بشكل أخص - ، فقد أقبلوا على التراث بروح إمبرياليه ، وبأدوات بمن يريد أن ينبش قبراً بحثاً عن كنوز وتركات الموتى . !

● وحتى مثقفونا المعتدلون ، لم يسلموا أيضاً من العاهات : إذ رفعوا منذ

البداية الشعار القائل : ماذا نفعل بالتراث ؟ ماذا نأخذ وماذا نترك ؟ وقرروا بعد مداولات كثيرة ومناقشات أن يقسموه ويجزؤوه ويفتسوه . يأخذون الصالح منه للعصر والزمان ويهملون ما لا يصلح . . ! أرادوا بعبارة أخرى أن يسلخوا قطعاً من الوجه الجذاب الجميل الذي أطللنا به من نافذتنا على العلم طوال ١٤ قرناً . . ! وأن يفصلوا جهلاً أو تجاهلاً بين العمارة والمعمار أو بين العقيدة والإنجاز . من حقي أن أتساءل : ما هو الوجه الآخر البديل ؟ أليست حياتنا كلها أقنعة ، أصبغة ومكاييج ؟ وجهنا السابق إن كانت به دمامة فوجهنا المستعار قميء !! « ماذا نأخذ وماذا نترك » ، ليس هو السؤال العلاج . ومثل ذلك إنما يعكس قصوراً في الرؤية وغياباً في التنظير . ولكي لا تفهمني خطأ ، فثمة فرق بين الأصالة والتجديد ، وبين الأصالة والتحريف . . !

تسألني ما الأصح ؟ فأشير بدوري إلى ما أوجزته باحثتنا الفاضلة العالمة في كلمتين اثنتين : « العقيدة والمعرفة » . بينهما برزخ الزمان والمكان . فاصل زمني عمره ثمانى قرون من المخاض الفكري والنفسي ، شهد كل التفاعلات التي رسمت شكل ومسار العلم ، وقررت في الطبيعة دور ومستقبل الإنسان ! كاتبتنا - لم تناول كما فعل غيرها - قضية العلم والتطور وهموم اللاهثين خلف قطار الحضارة منفصلة عن نظرة الإنسان الأولى إلى الطبيعة من أعمق بعد ومن كل زاوية ، ومن خلال عرض مستفيض لكل الرؤى والفلسفات . هو تناول الذي فسّر وقفته الطويلة لدى قدماء اليونان ، وتنقلها في تعاريج أدمغتهم ؛ شرحها لنظرتهم المستخفة بالطبيعة ، وميلهم إلى التجريد ، واستخلاص تأثير ذلك في العلم التطبيقي . عرضها السخي لقضية الازدواجية والفردية في الكون والحياة والإنسان وردود فعلها وانعكاساتها على التحرك والكشف العلمي . وتطوافها العجيب بين أروقة المسيحية كي تظهر بالحجة والدليل التوافق الذي خفي على كثير من الكتاب والباحثين ، أثر الفكر الأفلاطوني - الأرسطي - البطليموسي في اللاهوت المسيحي وتمكنه منه وتسيده عليه حتى وقت متأخر جداً ، وإلى أن تحرر على يد العرب بالإقتباس والمخالطة أحياناً وبالحروب الصليبية أحياناً أخرى ، أيضاً وبالاستعداد الذي هياه عمالقة الفكر

الأوروبيون ، الذين لجأت أفواههم واقتيدوا إلى المفاصل والمحارق ثمن عشقهم للحقيقة . . !

● وكل ذلك ما كان ليتحقق لولا أن تسلحت كاتبينا بالملكتين ، الموهبتين اللتين أشرنا إليهما في المقدمة ، عرفنا الأولى ، أما الثانية فالحب والإخلاص والتجرد والحدس الذي لا يخطيء ولا يخيب في التعرف إلى مواطن القبح والجمال في كل شيء . ! لقد تمكنت من فك عقد رجال الدين كما لو كانت ترهف السمع إلى وساوس صدورهم . تحسُّ وأنت تقرُّ كما لو أن جلدها تقشعر من فرط برودة الفلسفة اليونانية . تكاد تسمع الأنين كما لو كانت شاهدة عيان على طموحات وعذابات المتحررين الأوروبيين الذين اقتربوا كثيراً جداً من نظرة المسلمين للكون . ولكنك تطرب أيضاً ، وقد تغنت وأنشدت وتغزلت بكل الخصائص العربية ، وأفانين الحضارة الإسلامية ، خريجة وفيّة لإحدى أكاديميات المأمون ، ومحاورّة ذكية في ندوات الرشيد ، مستمعة مميّمة إلى السراة تحت جناح الظلام ، لإهازيح صبية على سنم ، في اليمن السعيد أو بطاح الحجاز .

● وحُبّها وولعها بالإنجاز لم يثنيها عن تتبع السرّ وتعقب السبب . إنها المرّة الأولى التي تقبض فيها باحثه ، بجمع يديها على ملابسات القضية ، وتمسك بنفس القوة بالمقومات والخصائص التي قطعت بالإنجاز مسيرته المظفرة النادرة ، لتصل في النهاية إلى الحقيقة التاريخية الكبرى : الإسلام والعروبة أولاً وآخرًا ، كل ما يدعو إلى الوحدانية/ الله ، كي لا ينحرف العلم عن الصراط المستقيم فينزلق في مهاوي الشيطان . . . !

● لقد أحببت الإنجاز ، لكنها لم تنظر إليه كتحفة نادرة للإقتناء ، كمستحاة للتحنيط ، كتراث مات عنه أصحابه فماله من وليّ . . ! قبلها لم أسمع بأن آثاراً ، تحركت ، نطقت ، تكلمت ! الآن وقد سكبت فوقه من رحيق روحها وحشاشة نفسها وأعطته بعداً وعمقاً ، أدري كيف يمكن لهذا الماضي أن يفيق من رقدته ، أن يصرخ بأعلى صوته : أنا تراث العرب الذي يأفل ويشرق ، يغيب ويحضر ، أنا الكوكب الذي يدور ليصنع الليل والنهار ، أنا النور والديجور ، البرد والحرور . أنا حضارة الإسلام ، روح الله ، بذرة الخير التي لا

تذوب قبل أن تلد مئة سنبله ، تنبت ألف حبة ، قرص الشمس الذي لا يغرب
قبل أن يضيء مليون كوكب وكوكب . . !

ما أكثر وما أكثر ما توقفت عند منجزات العرب ! ما كان أكثر عجبها بها
وعَجَبُها منها ! ورغم ذلك ، فقد ظلَّ عقلها يعمل ! لم تطفَّ عاطفة الحب على
روح البحث . لم يعمها رونق الابتكار عن التفكير فيما وراء الابتكار . أن تطرح
على نفسها ألف سؤال وتَسأل : صنع كيف صنَّع ؟ نوع كيف نوع ؟ وأبدع
كيف أبدع ؟ وكان خُلُقياً ، تقياً ، ربانياً . طار ، فلم يطر على بساط الريح كما
توهم الجاهلون ، ولكن بجناحين حقيقيين : الطبيب العالم عباس بن فرناس .

● حدَّثنا التاريخ أنَّ الأيوبي صلاح الدين ، كان بطلاً مغواراً ، رجل
حرب وطعان ونزال . لم يقل لنا أحدُ بأنه عالم يكرم العلماء . بأنَّ أحد رجاله ،
من رهطه وحاشيته الطبيب الجراح عبد اللطيف بروح قائده كان الوحيد الذي
شقَّ عصا الطاعة على صنم الطب الأكبر جليْنوس حين قرر : « لقد علَّمنا
جليْنوس بأن الفك الأسفل يتكون من عظمين يربط بينهما نسج خام ، لكننا قمنا
بفحص ألفي فك سفلية فلم نجد فيها فكاً واحداً يتألف من عظمين . إنه عظم
واحد فقط وبدون ربط ! »

● صنع العربي الأسطرلاب ، الجهاز العجيب الذي أفزع الملوك وهز
التيجان ، فلم يحدثونا عن وقوده ، عن طاقته ، عن سبب صنعه . هي وحدها
التي قالت : إنها الصلاة - السجود لله ، التوجُّه نحو الكعبة . هاجس العبادة لم
يعقه لأن يكون صاحب أقدم براءة لساعته السويسرية الشهيرة في ذلك
الزمان .

● حَفَّظنا ناشئتنا تاريخ المذاهب الإسلامية ، السنة والشيعة والمعتزلة ،
كل ما فهمناه عنهم أنهم قالوا بخلق القرآن وبالمنزلة بين المنزلتين ، وبسيف
المخالف يقطع رؤوسهم وألستهم . أدخلنا في روعهم أن تاريخ العرب والعجم
تاريخ شقاق ونفاق ، وإسفاف واختلاف . لم لم يقولوا لنا سامحهم الله بأن
مناظرات إخوان الصفا ، فتقت المواهب ، فجرت العبقريات ، وصنعت اللبنات

الأولى في صرح الفلسفة الإسلامية الشامخ . هل جهلوا أن يقولوا ، كانت السّد الذي احتمينا خلفه من سيل الفلسفات الغربية واليونانية التي فرضت على العقل حجراً، وانها قدمت لموسوعتنا من أفكار منفتحة مهدت الطريق أمام المعرفة الطبيعية ، وخدمت قضية العلم التجريبي ! ابنُ رشد لم يقل ما قاله تمبير : « ما هو صحيح في نظر العلم قد يكون خطأ في نظر العقيدة . »

إبن رشد حسم في ست كلمات صراعاً دام قروناً : «للحقيقة وجهان ، حقيقة العلم وحقيقة الدين » . عبارة شهيرة نقلها عنه سيجر باربانث وصرخ بها بأعلى صوته فكان جزاءه الموت .

● قلنا لأبنائنا ، أن العرب قاسبوا وحسبوا ، طرحوا وضربوا ، صنعوا السفن وجابوا البحار ، ومع ذلك فقد ظَلَّت ميدالية الشرف معلقة على صدر بحار إسباني ، كيف يحق لنا أن ننسى بأن العينين اللتين أبصر بهما النوي الكبير في ظلمات المحيط كانتا من فبركة عربية ؟ ! أجل إنها البوصلة التي كانت دليله إلى المجهول في الليالي حالكة السواد . . !

● واللغة العربية ، أحقّ ما يقال : أنها البضاعة الكاسدة في سوق الكلام ؟ حتى أن عميدها كان أول من طعن وشكك في قدرتها على مواكبة العصر الحديث وصلاحياتها لغة للعلم . لأنها الشاذة عن القاعدة العامة من اليسار إلى اليمين دعا إلى استبدالها بالخط اللاتيني كما فعل أحفاد بني عثمان ؟ !

اللغة العربية هذه لم ينصفها أحد كما أنصفتها هذه المرأة التي ستصبح كلماتها قولاً مأثوراً : « . . . وبحق فإن اللغة العربية تتمتع بمقدرة جمة على التجريد ، الشيء الذي أتاح لها إمكانية صياغة أغلب المصطلحات الفلسفية والعلمية . . . هذا في الوقت الذي تعاني فيه مقارنتنا - نتحدث عن لغتها ونفسها - من ضعف مزدوج نتيجة الفرق في بنيان اللغات السامية والهندو جرمانية . فمن أجل الحصول على كل معنى خاص ، نعتمد على كلمة جديدة ، في حين أن اللغة العربية تكون مختلف المعاني من جذر إلى جذر

جديد ، بحيث أن غناها بالمعاني الإضافية يفوق كثيراً الموجود في اللغات الأوروبية .

● وعلمونا فيما أنصفونا بأن العرب عكفوا على ترجمة كتب الأولين وذلك كل ما فعلوا ! ومن أجل إبراز الحدث وإعطائه الأهمية التي تضمن ترسيخه في الأذهان ، شددوا على النظر المادي من الذهب والفضة لمن يترجم كتاباً . إذاً فالعرب بهذا القول ، وسطاء ، سعاة بريد ، حملوا لواء المعرفة وسلموه لمن جاء بعدهم !

هراء ! إن العرب لم يقبلوا شيئاً على علاقة أبداً ! لقد كان لهم رأيهم في كل شيء . مسبر الشك لم يسقط من أناملهم يوماً ! لقد أرسى النظام بعبارة الشهيرة إحدى أكبر الأصول العلمية التي يمكن أن يعيش عليها بحث ، تلك مقولته : « إن الشك هو الشرط المسبق للمعرفة » .

لقد تلقف العرب علوم الآخرين فغربلوها ، نقحوها ، أضافوا إليها أو أنقصوا منها : عشرات العلوم نسبت لغيرهم وهاك مثلاً : أولم يقولوا : إن الصينيين هم الذين اخترعوا البارود : حسنٌ ، إن العرب كانوا أول من صنعه بترجمات كتب حسن الرماح الحربية وكتب الكيميائيين منذ القرن ١٢ . ، صنعوا المواد الكيميائية المتفجرة كوسيط دافع للقذائف المستعملة في المعارك ضد غزو الجيوش الصليبية .

إن جميع القضايا التي سبق طرحها ، والتي وضعت ضمن الإطار العام للمشكلة الأساسية التي يهدف إليها هذا البحث ، وهي تطابق العلم والمعرفة الأوروبيين ، ليس الديانة المسيحية كما قد يتبادر إلى الأذهان ، بل الآراء الفلسفية لأحرار الفكر الأوروبي الذين اضطهدتهم الكنيسة ، هذه القضايا والخلاصة النهائية سواء في تطابق والتقاء العلم الحديث مع الطرح الفلسفي أو انفصاضه عنه والإنزلاق في درب الشيطان ، إنما تبرز الوجه الصحيح الذي ينبغي أن يكون عليه العلم أسوة بالعلوم العربية ، ولإظهار الفارق بين اتجاهين ، إتجاه سار بالعلم فأثمر وأعطى ، إنطلاقاً من اعتقاد سليم منذ

البداية ، واعتقاد تلكاً كثيراً حتى استطاع الوقوف على قدميه ، يتطابق كثيراً والعلم المعاصر ، نظرية وفرضاً فقط ، أما في واقع الأمر فثمة انفصال وتنصل وانفكاك عن كل قيمة علوية أو ارتباط سماوي خاصة بعد اكتشاف الذرة التي فضحت على لسان علمائها الكبار خطأ وفساد نظرية مادية الكون .

لقد كان المسلمون ملحدين في نظر السلطة وكذلك علومهم . إن العبارة الآتية تصور لنا مبلغ التعصب الأعمى ، الذي دفع الشاعر ليسنغ إلى التعقيب عليه بلهجة ساخرة لاذعة بعد ٧٠٠ سنة : إن الشيء الذي اتفق على تسميته ملحداً - يتمتع بخاصية فاضلة جداً : إنه الإنسان الذي أراد أن يرى بأمر عينيه على أقل تقدير . والسؤال الذي يفرض نفسه ، ما إذا كانتا عينين مسيحيتين هاتين ، اللتين أراد أن يبصر بهما . أجل إن إسم ملحد في تلك العصور ، كانت أكبر نصيحة يمكن أن تصدر عن عالم للأجيال القادمة .

وبعد فلا أريد أن أفسد بالإطالة عليك - سأتركك تتقلب وحدك في نعيم العقيدة والمعرفة هذا . وقبل أن أتركك أود أن أذكرك بأن الكاتبة أصرت وشددت على القول بعروبة كل من أسهم في الحضارة العربية - الإسلامية - لأنها الحضارة العربية - الإسلامية لا الحضارة الفارسية هي التي فجرت عبقریات الرازي وابن سينا .

فإلى أولئك الذين خاصموا الدين وحاربوا الله ، وإلى كل الباحثين عن علم أخلاقي شريف ، لا علم شيطان مريد يحمل في طياته بذور الفناء والدمار والإنذار ، نقول : خيراً يفعلون ، إن هم أعادوا النظر في موقفهم من قضية الإيمان والكفر . لا نقولها من موقع التعصب الأعمى والتزمت المقيت ، ولا ننقلها على لسان مسرف في التقى ، بل من موقع البديهيّات التاريخية وعلى لسان إحدى عمالقة المعرفة في العصر الحديث . السيدة الدكتورّة سيجريد هونكه . جزاها الله عن الحقيقة خيراً ، وحفظها ذخراً وسنداً للفكر والعلم والعروبة والإسلام ؛ والسلام .

دمشق في ٢١ من رمضان

الموافق ٨٦/٥/١٣